موقعة عين جالوت

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

أردت أن أكتب مقالاً للرسالة — لعددها الهجرى الممتاز — فنقّب فكرى فى أرجاء التاريخ الإسلامى ، حتى عنّ لى هذا الرأى . قلت : لماذا لا يسجل فى هذا العدد الهجرى — بعض الخطوب الكبيرة فى التاريخ الإسلامى ؟ ولا سيما الخطوب التى وقعت فى نظائر السنة التى تصرمت ، أو السنة التى استهلت. قد تصرمت سنة ١٣٥٨ ، وأقبلت سنة ١٣٥٩ ، فأستعرض نظائرهما . عبرت سنى ٥٨ و ٥٩ من قرون التاريخ الهجرى كله ، فرأيت أحداثاً كثيرة ، وغيراً عظيمة . فلما هممت بالكتابة ، تبينت أن مقالاً يكتب على هذا الشرط ، لا يعدو أن يكون ثبتاً للحوادث مختصراً ، أو مقالاً مفصّلاً يزيد على حاجة المجلة .

فلم أجد بدّاً من تخيّر بعض الحوادث ، فررت بخطوب جسام ، وحادثات صغار ، حتى انتهيت إلى عام ٦٥٨ فوقفت وقفة كدت أمسك فيها القلم لأكتب فى واقعة هائلة عظيمة الأثر كانت فى هذا العام ، ثم جاوزتها إلى واقعات أخرى ، حتى بلغت وقتنا هذا ، ثم رجعت بى الرغبة إلى تلك الواقعة ، إذ رأيتها عظيمة الأثر فى تاريخ المسلمين عامة وتاريخ مصر خاصة ، فأخذت القلم لأكتب عن « موقعة عين جالوت » :

كان عام ٦٢٨ فاتحة شر مستطير فى العالم الإسلامى : سالت فيه جيوش جنكيز من هضاب الصين تفرق كل شىء وتدمّر كل شىء ، طغت على التركستان فخرقت عرش ملوك خوارزم ودارت بالمدن العظيمة تخريباً وتدميراً ، وفر محمد خوارزمشاه وكان كما قال مسلم بن الوليد :

وطار فى إثر من طار الفرار به خوف يعارضه فى كل أخدود

وورث ابنه جلال الدين ملكا فى أيدى التتار ، وجداً بين الطعان والضراب ، فصبر وصابر وجاهد ما بين نهر السند إلى حدود العراق يحاول جهده أن يلمّ الشمل ويرأب الصدع ، ويخلق من الفرقة اجتماعاً ، ومن الضعف قوة ، ومن الذعر ثباتاً ، ومن اليأس رجاء ، حتى اغتالته المنون بعد أن أعجزتها مصاولته ، وختلته بعد أن أعيتها مجاهرته

وانتشر الرعب ، وعمّ الفزع ، ولم يثبت للتتار جيش ولا حصن فى شرقىّ البلاد الإسلامية

وما لى أكلف نفسى الوصف ولا أستمع لابن الأثير ، وقد عاش على شاطىء هذا الطوفان ، وأحسّ لفح هذه النار ، يحدّث حديث هذه الوقائع :

فيها ببيئته؛ أما غير ذلك مما يتصل بالتشريع للناس وإلزامهم باتباعه فهو السنة المتبعة. غير أن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الدائرة كانت مكونة من عملين: الأول بيان التشريع القرآنى، الثانى تطبيقه على الحوادث الواقعة والمسائل المتجددة، فأما البيان فهو متمم للقرآن وللتشريعه وهو لهذا أصل من أصول التشريع الإسلامى واجب اتباعه، وعلى الناس مراعاته. وأما التطبيق على الحوادث بالفصل فى الخصومات وفض النزاع فى المشكلات، فذلك ينبنى على ما لكل حادثة من ظرف، وما لابسها من ملابسات، وما أحاط بها من عوامل مما لا يعيه إلا المتصدى لحلها الذى أقام نفسه لحل إشكالها، فإذا نقل الحكم فيها صعب على ناقله أن يستوعب جميع دواعيه، فذكر منها ما تنبه له

ووعاه وما حفظه وأحصاه وما استقر فى ذاكرته فلم ينسه، ومن هذا أتى اختلاف الرواة عند ما يروون حادثة واحدة، فكان ذلك سبباً فى اختلاف الآراء وتعدد المذاهب وتنوع العمل. ومن هذا يتبين أن التشريع النبوى لم يخرج فى أغراضه وحكمته عن التشريع القرآنى بل الغرض فيهما واحد والحكمة واحدة والغاية واحدة، وهى أن تتهيأ للناس حياة صالحة يستمتعون فيها جميعاً بحرياتهم وتتوافر لهم فيها حقوقهم ، ويعتمدون فيها على عقولهم وأفكارهم وتنتهى بهم إلى مجتمع مؤسس على الإخاء والتعاون يقوم على النشاط الفكرى ويعتمد على العمل المنتج الاجتماعى ولا يهمل الشأن الفردى .

على الطنطاوى

هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل : إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتل بمثلها ؛ لكان صادقاً ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ... الخ

— ٢ —

مات جنكيز خان سنة ٦٢٤ بعد أن قسم بين أولاده ما فتح من الأرض وما لم يفتح ، وامتد الفتح في آسيا وأوربة ، وكانت غَيَر ، حتى أرسل بنكو قا آن حفيد جنكيز ـ أخاه هولاكو سنة ٦٥١ ليفتح حصون الاسماعيلية ثم يفتح بغداد فأخضع أمراء إيران والقوقاز إلى عام ثلاثة وخمسين واستولى على أكثر قلاع الاسماعيلية .

ثم جاءت الطامة الكبرى فاستولى على بغداد ، ومحا الخلافة العباسية تاسع المحرم سنة ست وخمسين وستمائة (١٦ يناير ١٢٥٨) لقد طوى أجداده الممالك الإسلامية إلى العراق ، ثم أصاب هو المسلمين في الصميم إذ أخذ بغداد التي لبثت مقر الخلافة وقبلة المسلمين في العلم والحضارة أكثر من خمسة قرون

ماذا يصد هولاكو عما يشاء ؟ من ذا يقف للجيوش التي لبثت ثلاثين سنة تسير من ظفر إلى ظفر ، ومن مملكة فتحتها إلى مملكة قدر لها أن تفتحها ؟ إن آسيا ما بين قراقروم وبغداد في قبضة أبناء جنكيز ، وإن أوربا الشرقية إلى البحر الأدرياتي قد عنت لأمرهم . ليس على هلاكو إلا أن يسير الجيوش فتطوى الأرض ، ويثير الحروب فتخر الممالك ، ويوعد الملوك فيخذلها جندها ، وينزل بالمدينة فتسلمها أسوارها . عزمة تسخر له الشام ، وأخرى تقهر له مصر ، ثم عزمات تبلغ به بحر الظلمات

— ٣ —

سار التتر إلى الشام فلم تستطع حلب لهم دفعاً ، وهؤلاء المتصمون بقلعتها لن يجديهم الاعتصام ، ولا مناص لهم من الاستسلام بعد شهرين . وسارع أهل حماة إلى حلب فأعطوا هلاكو مفاتيح المدينة . ولم تثبت للقوم مدينة بين حلب وغزة

وأما أمراء الشام من بني أيوب فمنهم من انحاز إلى التتر مؤثراً العافية ، ومنهم من لجأ إلى مصر مستنجداً والملك الناصر أكبر هؤلاء ترددت به الحيرة بين حدود مصر والشام فلم يجد إلا المسير إلى هلاكو

وأبت مصر التي تجاهد الصليبيين منذ مائة وستين عاماً ، أن تذل للتتر ؛ فجمعت ما فيها من إعان وقوة وخرجت في رمضان سنة ٦٥٨ وصمدت للقوم فالتقى الجمعان على عين جالوت في فلسطين . فأما التتر فلم يعرفوا في الحرب إلا الانتصار منذ سال سيلهم على البلاد الإسلامية قبل ثلاثين سنة . ماذا يخشون من جيش مصر وقد مزقوا المسلمين جيشاً بعد آخر ، ولم تصدهم البسالة والاستقتال دون غاية . وأما جيش مصر الذي جمع المصريين وعرب البادية من مصر والشام فقد أيقن أنها الموقعة الفاصلة ، وأن هزيمة في عين جالوت تفتح طريق العدو إلى مصر فالمغرب ، فصمموا أن ينتصروا ؛ وكثيراً ما تلد العزيمة الظفر . ولم يزلزل عزائمهم أن رأوا بعض أمراء المسلمين في صفوف العدو ـ ذلك الأمير الشقي المتسمّى الملك السعيد

التقى الجمعان يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام ثمانية وخمسين وستمائة ، واحتدم القتال وصبر المسلمون ثم صبروا ، ولقوا من حملات التتار مايوهن العزائم فلم يهنوا . إلى من يكلون الدفاع عن الإسلام والمجد إذا لم يستميتوا في عين جالوت ؟

كتبغا قائد التتر قتيل ، وابنه أسير ، وجنده مصرّعون في حومة القتال ، وبقايا السيوف منهم يلوذون برءوس الجبال

علم المسلمون يومئذ أنه يستطاع هزم التتر فلم يثبت القوم في بقعة من بقاع الشام وأسرعوا في الرجوع إلى الشرق

جمع التتر شملهم وأعدوا للحرب عُددهم ثم رجعوا فاستولوا على حلب بعد شهرين من موقعة عين جالوت ، ولكن عين جالوت قد فصلت في القضية من قبل وعلمت المسلمين أن الأمل والعزم والإقدام تغلب كل عدو ولو كان التتر جنود هلاكو حفيد جنكيز

اجتمع المسلمون على حمص وسار التتر إليهم . فليشهد القارئ قبل المعركة جمعاً من أنجاد العرب يسيرون إلى حومة الوغى :

قال الشيخ شهاب الدين الحلبي : كنت في نوبة حمص في واقعة التتار جالساً على سطح باب الاسطبل السلطاني بدمشق إذ أقبل آل مرا[1] زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح على الخيل المسوّمة والجياد المطهمة وعليهم الكزغندات[2] الحمر ، والأطلس المعدني والديباج الرومي ، وعلى رؤوسهم البيض كأنهم صقور على صقور ، وأمامهم العبيد تميل على الركائب ويرقصون بتراقص المهارى ، وبين أيديهم الجنائب ، ووراءهم الظعائن

(١) آل مرا من آل ربيعة من طيء

(٢) كزغند معرب خزكند وهو قباء محشو بالحرير يلبس في الحرب